## الانتماء الثقافي والعولمة

على الرغم من النزعة التغريبية الواضحة في كتابات أبي شادي لا نجده يرضى بالتضحية الكاملة بمشخصاته وهويته العربية الإسلامية، أي إنه لم يساير الكماليين وأنصار جمعية الاتحاد والترقي التركية في التنازل عن الهوية الإسلامية والعزوف عن الثقافة العربية والانضواء تحت راية الحضارة الغربية ولم يساير كذلك شبلي شميل وفرح أنطون و إسماعيل أدهم وسلامة موسى وبعض كتابات توفيق الحكيم في الاعتقاد بأن السبيل لإنهاض الشرق هو المسايرة والمتابعة لثقافة الغرب الفتية والنظر للثقافة العربية الإسلامية بأنها حضارة غابرة أقعدها الجمود عن اللحاق بركب المدنية المعاصرة، ومن ثم يجب طيها في سجلات التاريخ.

وواقع كتابات أبوشادي تكشف عن إنه قد اتخذ من الفلسفة العملية والنهج الماسوني سبيلا للدعوة للعولمة وتخطي الحواجز التي تحول بينها والتطبيق في شتى أمور الحياة بداية من نقد النظريات المتعصبة ونهاية بتعلم لغة الثقافة العالمية أو إن شئت قل اللغة الدولية الأولى.

فنجده يرفض نظرية السامية والآرية التي تجعل التقدم والرقي من نصيب أجناس بعينها لتفوقهم العقلي وترى أن دونها لا يقدر على التجديد أو التحديث والاختراع والابتكار مبيناً أن التقدم والتخلف مرهون باستعداد العقل الجمعي بتفعيل آليات النهضة من جهة، وقدرة الرأي العام القائد المتمثل في النخبة من المستنيرين على تحدي معوقات التجديد ونجاحهم في توعية الجمهور وتربية الرأي العام على نحو يمكنهم من تحفيز المجتمع بمختلف طبقاته على قبول الفكر الجديد والخطة الموضوعة للإصلاح من

جهــة أخرى، وهو بذلك يتفــق تمام الاتفاق مع أرنولد تو ينبي في اعتقاده بأن المحرك الأول للحضارة هو قانون التحدي والاسـتجابة من جهة و يؤ يد جل الانتقـادات التي وجهها المفكرون العرب لآرثر دو جو بينو (1816 - 1882) و إرنست رينان (1823 - 1892) وغيره من غلاة المستشرقين الذين تبنوا هذه النظر ية الجائرة من جهة أخرى و يقول أبو شادي في ذلك:

«إن أحوال الشعوب وتقدمها وتأخرها وسعادتها وشقائها وكل شيء يتعلق بهـا تصـدره زعماؤها وقادتها. فـإن كان هؤلاء الزعماء مـن الرجال العادلين الذين يؤدون الواجبات تماماً وكانوا من أهل الدراية والمعرفة، وصلت الأمة بهـم إلى أعلى المراتب وتقدمـت بهم تقدماً باهراً، و إن كان هؤلاء الرؤسـاء من الفاسدين العابثين الجهلاء، سقطت الأمة بهم من مراتب رفعتها ومجدها، وتدلت من منازل عظمتها وأبهتها»[1].

و يؤكد مع أرنولد تو ينبي على أن تقدم وتخلف الأمم مرهون بأمرين:

أولهـما نضـج العقـل القائـد واجتهـاده في المواءمة بـين الثابـت والمتغير والمـوروث التليد والوافد الحديـث والجديد ومتطلبات الـروح وحاجيات البدن، ذلك فضلاً عن قدرتـه على صياغة خطاب تنو يري لإعادة بناء العقل الجمعي وتوجيهه نحو النهضة والارتقاء في كل الميادين، وعنايته بوضع خطة إصلاحيــة تكون بمثابة المشروع الذي تتحقق مـن خلاله الغايات وتحل فيه المشكلات وتسد فيه الاحتياجات، و يقول:

«الواقـع أن القوة الروحية والفكر ية في الإسـلام سـنادها العلم والعقل

(1) أحمد زكي أبو شادي: قطرة من يراع في الأدب والاجتماع، مطبعة الظاهر، القاهرة، 1908، ج1، ص100.

وكل ما خالفهما ليس من الإسـلام في شيء وكل ما بني عليهما مطابق للإسلام ومن صميم روحه.»[1]

كما ذهـب إلى أن إدعاء بعـض الجامدين بأن الحضـارات الشرقية تتميز عن الثقافة الغربية باحترامها للأديان وعراقة الأصل وخيرية المنبت وحسن العـادات والتقاليـد ومـكارم الأخـلاق وغير ذلك من السـنن الحميـدة التي جعلت الله يخص بلاد الشرق عن بلاد الغرب بإرسـال الرسـل إليها وتحميلهم أمانة التبرير دون غيرهم من شـعوب الأرض أضـف إلى ذلك أن الحضارات الشرقية هي التي كان لها السبق إلى العلم والتمدن ونبغت فيهما بالإضافة إلى سـائر الآداب والفنون، مؤكدا أن مثل ذلـك التحيز والتعصب لا يقل خطرا عن تعصب الغربيين لجنسـهم الآري وذلك لأنه يحول بين الوحدة أو الأخوة العالمية التي تنشـدها الأديان والفلسـفات الأخلاقية والجماعات الإنسـانية ويقول:

«وإننا لنقول بإخلاص أننا وقد طفنا في أوروبا كما أقمنا طويلا في كل من بريطانيـا وأمريكا ولم نرى في الولايات المتحدة الأمريكية - موطننا الحالي - إلا المثـل الأعلى للسـمو الديني الأدبي، وهو ما سـعدت بـه جميع الطوائف على اختلاف مللها ونحلها... فالمدنية الحديثة متعددة المظاهر، ولكن طابعها الصحيح الذي يتأثر به العالم هو الطابع الإنساني التقدمي، وباستكمال هذا الطابـع تمكنت أمريكا من بلـوغ منزلة الزعامة العالميـة في كل شيء. فمن خداع النفس أن نتوهم عكس ذلك. وما يجوز أن يغيب عن بال - المتعصبين للـشرق - أن الشرقيـين انغمسـوا في الإباحية والتهافت عـلى الملذات وتجهيز

(1) أحمد زكي أبو شادي: ثورة الإسلام، ص99.

المرأة بكل صنوف المفاتن والإغراق في الموبقات إغراقا يحطم الجسـوم، وما يزالون مع الأسـف على هذا الحال في أقطار متعـددة وكتب التاريخ طافحة بسيرة هذه المآسي» [1]

كما بين أحمد زكي أبو شـادي أن أولى سـبل التواصل بين الثقافات المغايرة هو تعلم لغتهم للاطلاع على آدابهم وعوائدهم ومعتقداتهم والاسـتفادة منها عـلى ألا يتعارض ذلـك مع الاهتمام بتعريـب المصطلحـات العلمية الحديثة كلما تيسر ذلك للمشـتغلين بالعلوم المختلفة، كما أكد مع زكي مبارك[2] على ضرورة تدريس المعارف العامة باللغة العربية في شتى مراحل التعليم، إلا ما اتصل منها بالأمور الفنيـة الدقيقة التي لم تعرب بعد، أو تتصل مصطلحاتها وتعبيراتهـا بالتقنيات العلمية العالمية شـأن لغة الأطبـاء والكيميائيين...إلخ ومـن أقواله في ذلك: «فـرأي الدكتـور زكي مبارك رأي لا غبـار عليه لو أنه اقترن بتنشـيط عظيم لحركة الترجمة العلميـة تحت الرعاية الحكومية بحيث نجـد لكل علـم وصناعة مجلة جامعة إلى جانب المؤلفـات القيمة المتلاحقة. ففي هذه الحالة لا يفوت المتعلمين بالعربية الوقوف على تيار الحركة العلمية في العالم بأسره، كما أن إلمامهم العام بلغة أوروبية واسـتعمالهم مصطلحات دوليـة مما يسـاعدهم على الاطـلاع على المصـادر الأوروبية نفسـها في غير مشقة.»[3]

(1) نفس المرجع، ص94، 95.
(2) زكي مبارك: اللغة والدين والتقاليد، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1936، ص5 ومابعدها.
(3) أحمد زكي أبو شادي: اللغة والدين والتقاليد في حياة الاستقلال، مقال في مجلة أدبي، يناير - مارس 1937م، ص105.

ويرى أبو شادي مع المجددين أن الضامن لحياة اللغة العربية ليس كثرة حفظة القرآن ولا لكونها اللغة الرسمية للأقطار العربية، بل الضامن لبقائها هو قدرتها على التعبير عن الواقع بكل ما فيه، وعن المعارف الإنسانية بكل ما تحتويه (العلم، الفن، الأدب، الفلسفة، الاجتماع، والسياسة) ويقول في ذلك: «يجب أن تكون اللغة العربية لغة علم وأدب وفن وفلسفة وسياسة واقتصاد وثقافة شاملة غير مقصورة على مصالح قطر دون قطر، وأن يتوفر على التأليف بها أعلام، وأن تنقل إليها أشهر التصانيف العالمية في كل باب»[1]

ويمضي أبو شادي مع زكي مبارك والمجمعيين في دعوتهم لوضع معاجم عربية حديثة تبين تطور الدلالات اللغوية والاصطلاحية والإجرائية السياقية للألفاظ والتراكيب، ويقره أيضاً على ضرورة تبسيط الأساليب في كتابة المقالات الصحفية والدراسات الأدبية، وذلك لتيسير التواصل مع شبيبة المثقفين؛ فالتقعر واستدعاء المهجور من الألفاظ ليس فيه من الأصالة أو الحفاظ على التراث من شيء، بل إن التحذلق يصرف النشء عن تعلم اللغة، وكان متأثرا في ذلك بدعوة لطفي السيد لتمصير العربية وتبسيط الفصحى دون إفراط أو تفريط. ومن أقواله: «ويعلم القراء أني لست من أنصار اللهجة العامية، ولكني أرتاح إلى تمصير العربية أو تعريب المصرية بحيث يظهر في أدبنا المصري روح هذا الوطن الرقيق الوديع، وهو ما يمثله شعر البهاء زهير أصدق تمثيل، وقد يمثله شعر ابن قلاقس وابن النبيه وابن نباتة بعض التمثيل، وأما الرجوع بنا إلى لهجة العصر الأموي والعصر العباسي

(1) أحمد زكي أبو شادي: قطرة من يراع في الأدب والاجتماع، ج2، ص 41، 42.

فليس من التجديد ولا من إنصاف بيئتنا في شيء. وأرى بيئتنا المصرية الحاضرة متفرنجة فلا يمكن تجريد شعرنا المصري من روح التفرنج، ولن يخاف ذلك إلا كل متصنع يحتمي خداعاً أو جهلاً منه بفلسفة الشعر وراء الغيرة على اللغة، حينما هو يسيء بذلك إلى لغته وشعره.»(1)

غير أنه يخالف المفكرين المحافظين ومصطفى صادق الرافعي في أن اعتماد الباحثين والدارسين على المؤلفات الأجنبية ضرباً من ضروب الغزو الفكري أو الاحتلال الثقافي الذي ينقص من تحرر المصريين من الاحتلال الأجنبي فعنده أن الاكتفاء باللغة العربية دون غيرها من اللغات في ميدان التعليم يضعف الطلاب ويجعلهم سجناء ثقافة لم تسهم في الحاضر بشيء ومن ثم يجب ترجمة العديد من الكتابات العلمية إلى العربية لإثراء ثقافة الضاد بمصطلحات جديدة والتأكيد في نفس الوقت على ضرورة تبسيط قواعد اللغة العربية لإقبال الطلاب على تعلمها والتوسع في تعلم اللغات الأجنبية لتحقيق ما نصبو إليه ألا وهو العولمة أو الكوكبة أو الأخوة العالمية، ويقول: «ونحن لا نوافق على أن نشر اللغة الأجنبية من مؤيدات الاحتلال، فالهند تشربت الاستقلال من الثقافة الإنجليزية، وما عرفت الخنوع والتنابذ إلا بفضل ثقافتها الوطنية المريضة المشبعة بالحزازات الطائفية وقس على ذلك كندا واستراليا وغيرهما من أعضاء الجامعة البريطانية... الاستقلال الراجح هو الذي يحرص على مقوماته مع الحرص في الوقت ذاته على العلاقات الأممية التي تستفيد منها الأمم الناشئة أضعاف ما تستفيد غيرها. ولا يجوز أن ننكر أن اللغة العربية أسوة باللغة اليابانية أو الفارسية وبغيرهما من اللغات الشرقية

(1) أحمد زكي أبو شادي: فلسفة الشعر، مقال بمجلة العصور، ع19، مارس 1929م.

ليست لغة عالمية في عرف الحضارة الراهنة التي اتخذت أممها الرائدة الحروف اللاتينيــة واســطة بيانها، وما دمنا متمســكين بالحروف العربيــة القديمة فلا أقــل من ترجمة آدابنا للتعريف لدى الغربيين، وعــلى هذا نعد صنيع الجامعة المصرية صنيعاً حسـناً...فمع إجلالي للغة الإنجليزية المتمكنة في مصر ومع محبتـي لهـا أرى أنه واجب حتما علينـا تنفيذاً لخطتنا في حمايـة لغتنا الوطنية وضـمان حياتهـا أن نجعلها بغير قيد ولا شرط لغـة التعليم في جميع المدارس، وأن نتوفر على الترجمة إليها دون انقطاع، فإننا الآن في دور يجب أن تقدم فيه الترجمة على التأليف ما لم يكن التأليف أصيلاً بالمعنى الصحيح وهذا لا ينافي العنايـة بتدريس اللغة الإنجليزية وتمكين الطلاب منها لينتفعوا بها في زيادة معارفهم من المصنفات الإنجليزية»[1].

ويـرى أبو شـادي أننـا لم ننظر للغرب نظـرة الناقد الفاحـص، بل نظرة الجاهـل الذي لا يسـتطيع تقييم ثمن ما يبتضعه من السـوق، فقد أخذ عوامنا وبعض خاصتنا أسـوأ ما في الغرب، الأمر الـذي ضخم رذائلنا وأجهز على ما بقي من ثوابتنا وأصولنا، ويقول في ذلك:

«المدنية الغربية مؤسسـة على الحرية والآداب والعلم والتضافر في سبيل المجد والرفعة، ولكن نحن لم نشيد مدنيتنا هذه الحديثة إلا على ما رأيناه عند الغربيين من قبائح ومسـاوئ بقيت متمكنة فيهـم ولم ينزعها منهم قادتهم. نحـن لم نأخـذ عنهم غير كل نقيصة ولم نقلدهـم إلا في عيوبهم، فما وجهنا همتنا وسـعينا إلى نشر العلم ببلادنا وتشييد دوره الراقية كما تفعل تلك الأمم

(1) أحمد زكي أبو شادي: اللغة والدين والتقاليد في حياة الاستقلال، مقال في مجلة أدبي، يناير - مارس 1937م، ص106.

والشعوب، وما حافظنا على مجد لغتنا وبذلنا جهدنا في رفع قدرها ونشرها وتأييدها، وما عملنا في مقاومة أولئك الذين دأبهم نشر الأباطيل بين أفراد الأمة حتى وضعوا لنا حاجزاً كبيراً في سبيل رقينا الأدبي، وما تعاونا على العمل لما فيه المصلحة العامة بل عمل كل منا لما فيه نفعه الخاص ضاربين بمصلحة البلاد عرض الحائط.»[1]

ويضيف أن بعض كتابنا يتحدثون عن الغرب بغير علم، ويبدو ذلك في نعتهم إياه بموطن الإلحاد والانحطاط الخلقي وما إلى ذلك من أمور تنفر المتدينين من التعرف على المدنية الغربية، ويغالطون أنفسهم في الوقت نفسه عند مقابلتهم بين أخلاقيات الشرقيين وتدينهم وحال الغربيين، فالواقع يثبت أن تدين الشرقيين أضحى مجرد مظاهر شكلية لا روح فيه، الأمر الذي يبرر تلوث أخلاقهم وانحراف سلوكهم عن الفضائل التي حثت عليها الشرائع، ويقول:

«أننا لم نر في الشرق تديناً صحيحاً نظرياً وعملياً يعادل في شموله، وفي معنويته مثلما رأيناه في هذين القطرين العظيمين (بريطانيا وأمريكا)»[2].

وتتميز دعوة أحمد زكي أبو شادي في الاقتباس عن الغرب بأنها دعوة انتقائية في حين كان سلامة موسى يدعو صراحة إلى التنازل عن الهوية الشرقية والمشخصات المصرية والقيم الدينية واقتفاء أوروبا في كل ما تفعله من عوائد ونظم، وليس أدل على تباين موقفهما من رفض أبو شادي لمظاهر الانحطاط والفساد التي بدت في المجتمع المصري في مسايرته عوائد الفرنسيين ويقول:

(1) أحمد زكي أبو شادي: قطرة من يراع في الأدب والاجتماع، ج1، ص184، 185.
(2) أحمد زكي أبو شادي: ثورة الإسلام، ص94.

« كثرت الحانات بهذه البلاد وتفاقم شرها وغدت مصدراً لما تئن منه من المصائب والويلات وتعددت محال القصف والخلاعة وأماكن الفجور والفحش وناشئتنا تؤمها بكثرة وتفاخر بذلك كل المفاخرة، ولقد كان هذا سبباً وداعياً لأن يبعث لنا من أسواق باريس (مثلاً) في كل عام بجيش جرار من ربات الدلال والخلاعة مما يزيد عن حاجات أهل تلك المدينة مدينة الفجور والفسق، فتستوطن تلك الجماعات بلادنا وتقطن أجمل أحياء المدينة وثم تنصب الشراك لإيقاع شبابنا فيها، وهكذا يخاف العاقل أن يقع في حبائل دهاء تلك الغانيات فيلازم منزله متسلياً وقاطعاً الوقت بالمطالعة والبحث في أسفاره، أو يغادر داره ولكن يقصد أحد أصدقائه ليراه ويمضي معه وقت راحته وصفائه، ذلك لأنه يعلم أن أي منتزه يقصده لابد أن يراه عامراً ببنات الهوى وقل أن يجده خالياً منهن... نبذنا ما كان فينا من خصال شريفة واستبدلناها بما رأيناه عند أهل الغرب من رديء الطباع وسيئها ولقد جررنا على أنفسنا بذلك أضراراً جمة وفقدنا بقية ما كان فينا من شعور وحس شريف.»(1)

وينحاز أبو شادي إلى التيار التغريبي الذي كان يقوده سلامة موسى وإسماعيل أدهم وإسماعيل مظهر في هذه الآونة فنجده ينظر إلى الحضارة الشرقية على أنها الماضي التليد الذي يجب أن يفاخر به الأمم، أما معالجة قضايا الحاضر والتخطيط للمستقبل فيجب اقتباسه من الحضارة الغربية وذلك لأنها استطاعت بفلسفاتها وعلومها الارتقاء بمجتمعاتها في شتى الميادين ومن أقواله في ذلك: «والواقع أن المدنية الشرقية مدنية تاريخية نعزها لهذا

---

(1) حمد زكي أبو شادي: قطرة من يراع في الأدب والاجتماع، ج1، ص185، 186، 187.

الاعتبار فقط، وأما المدنية الغربية فهي مدنية الحضارة العلمية الراهنة ولا يمكن لأمة رشيدة أن تنصرف عنها. هكذا فعلت اليابان ذات الحضارة الشرقية العريقة فاصطنعت المبادئ الغربية في كل شيء حتى في الملابس حينما سمحت ظروف أهليها الاقتصادية.»[1]

ويضيف أن النزعة الاستعمارية الغربية لم تعد حقيقة مؤكدة، بل هي هواجس ومخاوف تطلقها الشعوب المتخلفة والمتعصبة دينياً بحجة أن الآخر لا يضمر للإسلام سوى الشر، في حين أن الأمم الإسلامية الناهضة قد وجدت ترحاباً من الدول الغربية وخاصة أمريكا لأنها تفضل منطق المصالح المتبادلة.

ويعني ذلك أنه رفض تماما نظرية الغزو الفكري أو الاحتلال الثقافي الذي روج لها المفكرون المحافظون في مطلع العشرينات من القرن الماضي ويقول:

«إن هذه الدول الأوروبية لم يحركها أي دافع ديني لالتهام الدول الإسلامية بعد شطرها، بل إنها الجانية على نفسها بذلك، لأنها خذلت بعضها بعضاً. وما من شعب إسلامي احترم نفسه فيما بعد، ولم يكن ألعوبة في أيدي الحاكمين بأمرهم إلا ونال احترام هذه الدول الأوروبية ذاتها وتعاونها معه بحكم المصلحة المشتركة كما كان حظ تركيا الجديدة.»[2]

كما يؤكد أن العلم هو الطريق الذي يجب علينا أن نسلكه إذا ما أردنا

(1) أحمد زكي أبو شادي: اللغة والدين والتقاليد في حياة الاستقلال، مقال في مجلة أدبي، يناير - مارس 1937م، ص112.
(2) أحمد زكي أبو شادي: ثورة الإسلام، ص93.

تحريـر مصر من نير الاحتلال وتخليص الشـعب من عاداتـه المرزولة وعلى رأسـها التواكل وطلب العون من أصحاب الأضرحة والأولياء، وأول الخطى إلى ذلـك هو إصـلاح حال التعليم بكل مراحله ووضـع خطة دقيقة للقضاء على الجهل، ولاسيما بين الطبقات الدنيا في الريف، ويقول في ذلك:

«إن كنتـم حقيقة تريدون الخير لأمتكم وليسـت لكم غاية تنشـدونها سوى أن تنال حريتها واستقلالها فاستنفدوا وسعكم وابذلوا طاقتكم في سد ثغـرة الجهل التي فيها، ورتق فتق نقائـص مجتمعها، حتى تصبح حقيقة بنيلها ذلك، وخليقة بأن تتسـابق مع بقية الأمم الراقية في ميدان جهاد الحياة، وأنتم بغير هذا لا تتحقق لكم أمنية ولا تصلون إلى ما تبتغون. تلك حكمة الخالق وسنة الكون والطبيعة وهذه الصيحة أقولها لقوم يعقلون»[1].

❒❒❒

## حر بن عقلان

لم أجد في مخيلتي عنوانا لهذا المقال أفضل من تلك المحاكاة أو ذلك التناص الناقص الذي يحيلنا إلى تراثنا الفلسفي حيث الفيلسوف العربي الأندلسي بن طفيل وقصته الشـهيرة حي بن يقظان. ولا أدري علـة ذلك فربما لأن كليهما - أي بـن طفيل وأبوشـادي - قد امتهن الطب وصاغ جل أفكاره في سـياقات أدبيـة، أو لتلك المعاني المسـتترة وراء العنوانين فـ حي بـن يقظان هو العاقل الأريـب اليقظ الذي فطن دون غيره لإمكانية التأليف بين المنقول والمعقول وأن طريق العلم - وطريق التصوف سوف يلتقيان عند نقطة واحدة ألا وهي

(1) أحمد زكي أبو شادي: قطرة من يراع في الأدب والاجتماع، ج1، ص179.